رحلة الى ايران

(٣)

١٠ الى بلدة كرند

لما ولت دياجير الليل وانشق اهاب الظلام عن جبين الفجر غادرنا خردينة وذكرُ ليلةٍ بتناها فيها لا يغادر ذاكرتنا وكانت كرند وجهة سيرنا . وكنا في الطريق نشاهد قوافل حاملة التجارات من مدينة الى اخرى ومن صقع الى آخر وهي مؤلفة من الابل والبغال والحمير

وشاهدنا في طريقنا طيوراً عظيمة كالعقاب والنسر وصغيرة كالحجل والحمام وحيوانات كثيرة كالذئب والدب . ولا تخلو تلك الارجاء من النمر والسبع والضبع ولكننا لم نشاهدها . وكنا نمر في طريقنا بقرى فارسية منها قرية سرميل التي تبعد سبعة اميال عن خردينة . ولما كانت الساعة الحادية عشرة صباحاً وصلنا كرند

لم نرَ ذكراً في مؤلفات الاقدمين لهذه البلدة ويظهر ان اول من جاء بذكرها المستوفي في القرن الثامن للهجرة . وقد سرّنا منظرها البديع وموقعها الانيق الذي يرقص القلب ويسر الخاطر . تقوم ابنيتها في منحدر جبل زاكرس وتتابع على شكل مدرّج طبقات طبقات . والشاخص اليها من لحف الجبل يراها ذاهبة في الفضاء الاوسع كأنها تناطح السماكين وتجري المياه في الطرق وتتسرب الى البيوت حيث تنبت اشجار الفواكه وربما بلغت قمة الجبل هناك ٥٠٠٠ قدم ونيفاً عن ساحل البحر . وفي سهلها جنان زاهرة ورياض روضاء تزكو فيها الكروم والاعناب والسفرجل والتفاح وما ضاهاها من طيبات الفواكه . ولكنّ زيارتنا كانت في قلب الشتاء فلم نرَ الاّ اعراداً في وسطهنّ من الثلوج في سهولها وحزونها ووهادها وانجادها ومرتفعاتها ومنخفضاتها . ولا حاجة الى ان نعيد بعد هذا ان الثلوج من المشاهد التي تتكرر في هذه الديار فلو بذلت العناية في تنظيم كرند لاضحت مصيفاً جميلاً انيقاً للعراقيين وربما تفوق لبنان من هذه الوجهة

وكانت الحكومة العسكرية البريطانية قد اتخذتها مصيفاً لجيشها ولنساء العساكر واقامت اسواقاً واحياء في سهلها الاّ ان بعد ثورة العراق قضت بسفر النساء ولم يبق ذلك المكان الاّ مقر الجيش وقد قضينا فيه ليلنا وهو منور بالكهربائية

يبلغ سكان كرند نحو ٣٥٠٠ نسمة ونيفاً والدين الغالب فيها العلي اللاهية وقال لي احدهم كلمة عن معتقد هذه الفئة اوردها هنا . تعتقد ان الالوهية حلّت في علي بن ابي طالب ولا يتخذون القرآن اساساً لدينهم ولا يصومون شهر رمضان ولا يصلون الصلوة التي فرضها الاسلام ويستحلون اكل لحم الخنزير وليس لهم معبد ولا جامع . بل انهم يصومون ثلاثة ايام في السنة ويصلون في غضونها صلوة معروفة عندهم ويتصدقون بصدقات ولهم كتاب ديني وقد عالجتُ الحصول على نسخة منهُ فلم اظفر بمنشودتي (١)

وفي كرند اربعون بيتاً من يهود الوطنيين يتكلمون بينهم اللغة الآرامية العامية ولهم كنيسان وفيها اداوة بريد وتلغراف ورئيس مبدرقة

١١ مسير ومصير

في عصر اليوم الثاني من وصولنا الى كرند شددنا الرحال ومررنا بطريقنا ببعض القرى الفارسية كخسرو آباد ومرنه آباد . ويرتاي المستر لسترنج في كتابه الخلافة الشرقية ان في هذا الموضع كانت الزبيدية التي ذكرها ابن حوقل ووصف عذوبة هوائها . وهذه القرية هي في اقليم كلهور بينها وبين كرمانشاه ٤١ ميلاً ويحكم سكان هذه الديار امير ويسمى اليوم «امير اعظم» وفي اثناء مرورنا بهذه الديار كانت البلاد قد نكبت بأميرها اذ قبضت عليهِ حكومة ايران واوسلتهُ مخفوراً الى العاصمة وافرجت عنهُ بعد ذلك وبعيد هذه القرية تشرع السكة بالانحدار من جبل عالٍ وتتبع الطريق منحدراته ومنعطفاته وفي سفحهِ قرية حسن آباد التي تبعد عن كرمنشاه ٢٩ ميلاً ونصف الميل . وفي هذه القرية معسكر للجيش البريطاني . وتابعنا سيرنا حتى انتهينا الى ماي دشت بعد الغروب بهنيهة . وبين هذا المكان وكرمانشاه ستة عشر ميلاً ونصف الميل . وقد وصف المستوفي هذا المكان في القرن الثامن للهجرة وقال ان في جواره كان نحو خمسين قرية . والمراعي والمروج وافرة تنسبب اليها المياه من الربى القريبة . فبتنا هناك لان الليل كان قد نصب شراعهُ والطريق وعرة ونزلنا في دار حاكم القرية فاكرم مثوانا لاسيما وان اخاهُ نصرت الممالك كان في رفقتنا

(١) وقفت على مقالة ممتعة في هذه الفرقة في العدد الاخير من سنة ١٩٢٠ من مجلة العالم الاسلامي الفرنسية ولولا ضيق المقام لنقلت منها شذوراً تفيد القراء

١٢ قرمسين — كرمان شاهان — كرمانشاه او كرمنشاه

القينا عصا ترحالنا في هذه المدينة الفارسية في صباح اليوم الثاني عشر من كانون الثاني (يناير) ونزلنا على البرنس « امير محتشم » (٢) في اليوم الاول اذ لم يسعنا رفضهُ. وعند الغداء جلسنا نأكل على الارض حسب القواعد الشرقية وكان حوالي السماط ارغفة خبز طويلة تغطي حواشيهُ وتلك عادة كبار الايرانيين في مآدبهم كما ان وجود اللبن فيها من الضروريات

عرف الاقدمون هذه المدينة بقرمسين فكرمان شاهان واخيراً انتهى تطور اسمها الى كرمنشاه وهي مشيدة على هضبات الجبل يرتقي تاريخها الى القرن السابع للمسيح بناها كسرى ابروز الساساني قرب دينور وفتحها العرب صلحاً بقيادة جرير بن عبدالله في العقد الثاني من الهجرة وجرت فيها ماجريات خطيرة على توالي القرون ليس هنا محل لذكرها . وما انتابها في اوائل القرن العشرين من سالار الدولة (عمّ الشاه المالك الآن) يُعد من ايامها العصيبة ولم تزل اطلال الخراب بادئة تنبيء بمظالم هذا الطاغية . وقد دخلها في الحرب الحاضرة كل من الاتراك والالمان والروس والبريطانيين . وجرت عند اسوارها وقائع حربية بين الروس والاتراك يروي اخبارها سكان المدينة

يقدر سكانها بستين الف نسمة اغلبهم على مذهب الشيعة وبينهم قبيلون من اهل السنة يعرفون هناك بالعمريين نسبةً الى الخليفة عمر بن الخطاب . وفيها ١٥٠٠ يهودي ونحو ١٠٠ مسيحي . وهناك عدد غير قليل من البهائيين يستترون معتقدهم وقد اغتيل رئيسهم الديني مدة اقامتي في كرمنشاه وهو « المبلغ لمغرب متحدة »

يحكم فيها والي تعينهُ حكومة طهران ويسمونهُ « حكومت » . وفيها رئيس جيش وهو بعرف الايرانيين « رئيس قوشون » ودرك يرأسهُ الكولونيل رضا خان ويطلق عليهِ اسم « رئيس الجاندارمري » وشرطة « ناظمية » ومأمور الاشغال الاجنبية « كاركذار » . وادارة بلدية وتلغراف وحصر الافيون والنقل والمكس والمصرف الايراني والمصرف العثماني والدولة البريطانية قنصل وكان يومئذ الماجور جرين هوس Major Greenhouse

(٢) تفضل دائماً ان تثبت الاسماء والالقاب على الاصول الفارسية فتقول امير محتشم تكبره ولا تصرفه

قد عرفنا اغلب رؤساء هذه الادارات وجالسناهم فاكرموا مثوانا وادبوا لنا ما ادب نشكر لهم فضلهم . وقد تكرّم علينا منهم ببعض الافادات فلا يخلو ايرادها هنا من فائدة

كانت الحكومة الايرانية تقطع اعيان الكورو وارد المكوس لقاء مال معين تتقاضاهُ منهم . وكانوا هم يجبون رسومها على قاعدة المساومة مع التجار . ولما كانت سنة ١٨٩٨ عهدت بجبايتها الى البلجيكيين فرتبوا لها انظمة تكفل ترتيبها على الاصول الاوربية مع مراعاة احوال البلاد وتجارتها. وكانت كرمنشاه وتبريز اول من سلم زمام مكوسها الى البلجيكيين . وكان قبل ذلك اي سنة ١٨٨٩ قد منح الشاه امتياز المصرف الشاهاني الايراني الى البارون دي روتر الانكليزي وخوّلهُ حق اصدار القراطيس المالية فتأسس برأس مال قدرهُ مليون ليرة استرلينية . اما الاسلاك البرقية فقد مدت من العراق الى كرمانشاه سنة ١٨٦٣

ان سوق البلوم كاسدة في كرمنشاه وغاية ما هناك مدرستان الواحدة للحكومة والاخرى لليهود . وقد زرتُ مدرسة اليهود وطوّفتُ في مدبرها في حلقاتها . وفيها ٣٠٠ تلميذ وتلميذة في سبع حلقات برنامجها ابتدائي يدرّس فيها الفارسية والانكليزية والفرنسية والعبرية ومبادىء الجغرافية والتاريخ والحساب واصول الدين

وفي هذه المدينة مطبعة واحدة تصدر فيها جريدة فارسية مرتين في الاسبوع اسمها «يسيتون» ويرتقي تأسيسها الى الحرب العامة لا غير اسمها الشاعر الفارسي العصري « لاهوتي »

اما منزلتها التجارية فخطيرة نظراً الى موقعها الجغرافي المتوسط بين العراقين العربي والعجمي وكردستان وداخل ايران . تأتيها البضاعات الاوربية بوساطة بغداد كالسكر والشاي والبنّ والقند والصوف والقطن على اختلاف انواعها والشموع والنحاس والزجاج والحديد والزغارف والحرائر والجوارب والاحذية وغيرها وهي تبعث بها الى الكور والمدن والقرى الداخلية. وهذه ترسل بوساطة كرمنشاه الى العراق العربي السجاد والقوا كه اليابسة والقطن والصوف والجلود والكشيراء والافيون وغيرها من طُرَف صناعات ايران القديمة والحديثة . وفيها اسواق حافلة بالبضاعات والامتعة ومعظم تجارتها بيد اليهود اما بيع الاشتات فبيد الاهلين

ومن الصنائع المتقنة في كرمنشاه الصياغة والنقش والحفر على آنية الفضة وكان فيها معمل سجاد اشتهر حيناً ثم اقفلت ابوابهُ وقد رأيت قطعاً من معمولات ذلك المعمل فالفيتها متقنة النسج دقيقة الصناعة ثابتة الالوان . اغلب بيوتها طبقة واحدة ومنها طبقتان مشيدة باللبن او الآجر المشوي . فيعمد الاهلون الى صناعة هذا الآجر وعندهم صخور الجبال قريبة منهم فلا يقطعون منها وقد زرت بعض الدور الكبيرة كدار « امير كل »(٣) واميرمقتدر واميرنوش جان(٤) ورأيتها كلها على طراز واحد ولا تمتاز عن غيرها الا بسعة صحونها ومساحة غرفها وحسنها ونقوشها الناتئة المصقولة بالجص . وفي كل بيوت كرمنشاه احواض يشرب اليها مياه العيون فيشرب منها الاهلون الا ان المترفهي الحال منهم يبعثون من يأتي اليهم بالماء من العيون القريبة . وعلى كلٍّ فمياه كرمنشاه لا تعد من المياه النميرة وفي ظاهر المدينة نهر صغير وهو القره صو

لرؤساء الدين يد طاملة وكلمة راجحة في الاحكام والسياسة والقضاء والاجتماعيات وقد تألف في الايام الاخيرة مجمع ديني من الزعماء وهو مجمع « آل يس » . يبت في الامور ويعهد بتنفيذها الى السلطة المدنية . ومما منعهُ يوم كنت هناك بيع المسكرات علانية والمقامرة ولبس النساء الجوارب الاوربية . ومع هذا النفوذ لرؤساء الدين فان روحاً جديداً قد ظهر بين الفرس وهو ميلهم الى النهوض واقتباس الآراء الفلسفية الحديثة والنزوع الى التساهل

ولم تزل بعض العادات القديمة الموروثة من المجوس اجدادهم اتباع زرادشت فاشية بينهم بمنزلة عادات قومية لا دينية . ومنها توديع شمس كل يوم عند غروبها بالطبل والنفارة والبوق وذلك في علية تطل على الميدان ودار الحكومة . ويحيي الفرس نور المصباح عند ايقاده ناهيك عما يقيمون من الافراح في عيد « نوروز » في الاعتدال الربيعي . ويجدر بي هنا ان اقول ان

(٣) يدعي سمو امير كل ان نسبه يرتقي الى اسرة صلاح الدين الايوبي وان اجداده هاجروا من كردستان الى كرمنشاه وكان لديه مستندات تؤيد صحة مدعاه الا انها تلفت عند ما تكبهم سالار الدولة وقتل والده (٤) ان في كرمنشاه عدداً من الامراء منهم صديق البرنس امير مختشم واميرمقتدر واميرنوش جان وغيرهم من الامراء الذين صادفتهم وكلهم من سلالة الملك فتح علي شاه الذي اشتهر بحب النساء وكثرة النسل وسيأتي الكلام عليه بعيد هذا

دين زرادشت لم يزل حياً في بلاد ايران لهُ اتباع في طهران وما جاورها من المدن ويعرفون باسم « كبر » وفي الهند فرقة منهم تسمى Parsis

وقد تعارفتُ مدة اقامتي في كرمنشاه برئيس ديني كبير من المسلمين وهو الامام جمعة قد درس دروسهُ الدينية في النجف ويتكلم العربية . فاخبرني ان والده خلف لهُ ولاخوته مكتبة عامرة فيها نحو عشرين الف مجلد بينها كتب خطية نادرة في علوم الدين والتاريخ واللغة عربية وفارسية وقد وعدني ان يطلعني عليها ولكن لم تتحقق تلك الامنية

ومما رأيتهُ عندهُ قطعتان من الذهب اهليلجيتا الشكل نحتهما الايرانيات زينة للكتف . وعلى وجه كل منهما صورة ناتئة بالميناء الواحدة تمثل الشاه ظهاسب والاخرى محمد علي شاه ووراء كل من هاتين القطعتين وردة بالميناء ايضاً . اما الوان النقش ودقة الصناعة فحدث عنها ولا حرج . وان هاتين الحليتين طرفتان من طرف الصناعة القديمة

وفي جانب بيت الامام تكية ويقال لها في كرمنشاه (حسينية) رايت في صدرها صورة اربعة ملائكة ناتئة مصورة بالجص في الجدار . وفي هذه المناسبة اقول ان الايرانيين يحرّمون النقش والتصوير فقد رأيت صوراً عشر قتل الحسين وموت السيدة فاطمة . وبمناسبة يوم ذكر موتها كانوا يطوفون بصور في الشوارع يتقدمها اهل التقى منهم عراة حتى المناطق يقرعون الصدور ويلطمون الخدود

وللكلدان مصلى صغير حديث النشأة ولهم قس . وهو المعهد الديني الوحيد للنصارى وقد سمعت فيهِ النصرانيات ينشدن الاناشيد الدينية التي تتخلل القداس الكلداني باللغة الفارسية . الا ان للبروتستان مصلى ايضاً وامرأة للتبشير يسميها اهل المدينة « حكيمة خانم »

ان ادوات الطرب عند القوم (الضرب) و (التار) ومن الغريب انك لا تسمع منهم الاغاني العامية او السافلة الا ماقلّ بل غاية ما ينشدون القصائد المنظومة لمشاهير شعرائهم كالفردوسي وحافظ ونظمي . ومنذ الحرب العامة او قبيل ذلك دخلت عندهم الاناشيد الوطنية والسياسية ومعظم القصائد التي يطربون بها في مجالسهم هي من نظم الشاعرين العصريين « لاهوتي » وعارف

بغداد يوسف رزق الله غنيمة